٤٤ أَنْفِقْ أُنْفِقْ عليكَ

قَالَ رَبُّ العزة سبحانه:

أَنْفِقْ أُنْفِق عليك.

وقَالَ : يَدُ اللهِ مَلأى ، لاَ تَغِيضُها (١) نفقَةٌ ، سَحاء(٢) الليلِ والنهارِ .

وقَالَ : أرأيتم مَا أنفقَ منذُ خَلَقَ السماءَ والأرضَ ، فإنَّه لَمْ يَغِضْ مَا في يَده ، وكانَ عرشُه على الماءِ ، وبيدِهِ الميزانُ يخفِضُ ويرْفَعُ (٣).

يقول الحق سبحانه:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لاَّ بَيْعٌ فِيهِ وَلا خُلَّةٌ (٤) وَلا شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٢٥٤) ﴾ [البقرة]

---

(١) لا تغيضها : لا تنقصها . وغاض الماء : نقص. وأعطاه غيضاً من فيض : أى: قليلاً من كثير . وغاض ثمن السلعة : نقص . [لسان العرب ـ مادة : غيض].

(٢) قال النووى فى شرحه لصحيح مسلم (٧/ ٨٤) :«السح : الصب الدائم» . وقال ابن منظور فى [لسان العرب ـ مادة : سحح] : «أى دائمة الصب والهطل بالعطاء ، وقال فى شرح هذا الحديث «يمين الله سحاء» واليمين هنا كناية عن محل عطائه ووصفها بالامتلاء لكثرة منافعها ، فجعلها كالعين الثرة لا يغيضها الاستقاء ولاينقصها الامتياح ، وخص اليمين لأنها فى الأكثر مظنة للعطاء على طريق المجاز والاتساع ، والليل والنهار منصوبان على الظرف».

(٣) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٤٦٨١ ، ٧٤١٩) ، ومسلم فى صحيحه (٩٩٣) وأحمد فى مسنده (٢/ ٢٤٢ ، ٣١٣ ، ٥٠٠) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه.

(٤) الخلة : الصداقة الخالصة المتينة التى تخللت القلب. [القاموس القويم ١/ ٢٠٨].

يخاطب الحق ـ تبارك وتعالى ـ الذين آمنوا وانفعلوا بالإيمان ، فالله يُكلِّف مَنْ آمن به ، لا مَنْ كفر ، يخاطب الذين أصبحوا أهْلاً لمخاطبة الله لهم ، فالإيمان بالله هو حيثية كُلِّ حُكْم ، سواء فهمتَ الحكمة منه أو لم تفهمها ، بل ربما كان إقبالك على أمر أمرك الله به ؛ وأنت لا تفهم له حكمة أشدّ في الإيمان من تنفيذك لأمر تعرف حكمته.

إن الحق يقول : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ ﴿٢٥٤﴾ ﴾ {البقرة}

أي: أنا لا أطلب منكم أنْ تُنفقوا عليَّ ، ولكن أنْفقوا من رزقي عليكم.

فالرزق يأتي من حركة الإنسان ، وحركة الإنسان تحتاج طاقة تتحرك في شيء أو مادة ، هذه الحركة تأتي على ترتيب فكر ، وهذا الفكر رتبه من خَلَقه ، والجوارح التي تنفعل ، واليد التي تتحرك ، والرِّجْل التي تمشي خلقها الله ، والمادة التي تفعل بها مخلوقة لله . فأيُّ شيء للإنسان إذن ؟

ومع ذلك ، إن حصل للإنسان خير من هذا كله فهو سبحانه لا يقول: إنه لي. بل أمنحه لك أيها الإنسان ، ولكن أعْطِني حقي فيه ، وحقي لن آخذه لي ، ولكن هو لأخيك المسكين.

يقول الحق تبارك و تعالى : ﴿ مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ ﴾ {الذاريات}

وإياك أن تقول : وما دَخْلي أنا بالمسكين؟ عليك أنْ تعلم أنَّ المسكنة عَرَض ، والعَرَض من الممكن أنْ يلحق بك أنت ، فلا تُقدِّر أنك مُعْطٍ دائماً ، ولكن قدِّر أنك ربما حدث لك ما يجعلك تأخذ لا أنْ تعطي.

الحق يقول لك: أعْطِ المسكين وأنت غنيٌّ ؛ لأنه سبحانه سيقول للناس

أنْ يعطوك وأنت فقير ، فقدِّر حكم الله ساعةَ يُطلَب منك ، ليحميك ساعة أن يُطلب لك ، وبذلك تتوازن المسألة .

﴿وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلأَنفُسِكُمْ وَمَا تُنفِقُونَ إِلاَّ ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لا تُظْلَمُونَ (٢٧٢)﴾ {البقرة}

فإياكم أنْ تظنُّوا أنني أطلب منكم أنْ تُعطوا غيركم ، لقد طلبتُ منكم أنْ تُنفقوا لأزيدكم أنا في النفقة والعطاء.

والحق سبحانه يقول لرسوله ﷺ :

﴿ قُل لِّعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلاةَ وَيُنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لاَّ بَيْعٌ فِيهِ وَلا خِلالٌ (٣١) ﴾ {إبراهيم}

فهو أمر صادر من الحق سبحانه لرسوله ﷺ ، وأن المؤمنين في انتظار هذا الأمر لينفذوه فوراً ، ذلك أن المؤمن يجب أنْ يُنفِّذ كُلَّ أمر يأتيه من الله.

والحق سبحانه يأمرنا في هذه الآية الكريمة بأن ننفق سِراً وعلانية ، وهكذا يُشيع الحق الإنفاق في أمرين متقابلين ؛ فالإنفاق سِراً كي لا يقع الإنسانُ فريسةَ المباهاة ، والإنفاق عَلَناً كي يعطى غيره من القادرين أُسْوة حسنة ، ولكي تمنع الآخرين من أنْ يتحدثوا عنك بلهجة فيها الحسد والغَيْرة مما أفاء الله عليك من خير.

ولذلك أقول : اجعل الصدقة التطوعية سِراً ، واجعلها كما قال النبي ﷺ : «لا تعلم شمالك ما أنفقتْ يمينك» (١) .

واجعل الزكاة علانية حتى يعلم الناس أنك تؤدي ما عليك من حقوق

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢/ ٤٣٩) ، ومسلم في صحيحه (١٠٣١) ، والبخاري في صحيحه (٢/ ١٤٣ ـ ١٢ / ١١٢ ـ فتح الباري) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه . وقد وقع في لفظ مسلم مخالفاً لكل روايات الحديث « حتى لا تعلم يمينه ما تنفق شماله ».

الله ، وتكون بالنسبة لهم أُسْوة فعلية ، وعِظَة عملية ، واجعلوا من أركان الإسلام عِظَة سلوكية .

ولكن لا بُدَّ أنْ ننفق مما نحب ، ومن أفضل ما عندنا ، لا من الخبيث منه ، مصداقاً لقول الحق سبحانه:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَلا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ(١) مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِآخِذِيهِ إِلاَّ أَن تُغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ (٢٦٧)﴾ {البقرة}

إن الإنفاق يجب أن يكون من الكَسْب الطيب الحلال ، فلا تأتى بمال من مصدر غير حلال لتنفق منه على أوجه الخير ، فالله طيب لا يقبل إلا طيباً ، فالحق سبحانه يحذرنا من أن نختار الخبيث وغير الصالح من نتاج عملنا لننفق منه لقوله تعالى :﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَلا تَيَمَّمُوا (١) الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِآخِذِيهِ إِلاَّ أَن تُغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ (٢٦٧)﴾ {البقرة}

أى: لا يصح ولا يليق أنْ نأخذ لأنفسنا طيبات الكسب ، ونعطى الله ردىء الكسب وخبيثه ؛ لأن الواحد منا لا يرضى لنفسه أنْ يأخذ لطعامه أو لعياله هذا الخبيث غير الصالح لينفق منه أو ليأكله.

﴿وَلَسْتُم بِآخِذِيهِ إِلاَّ أَن تُغْمِضُوا فِيهِ.. (٢٦٧)﴾ {البقرة}

أى: أنك أيها العبد المؤمن لن ترضى لنفسك أنْ تأكلَ من الخبيث إلا إذا أغمضتَ عينيك ، أو تَمَّ تنزيل سعره لك ، فمثل هذا لو أُعْطِى لك لَمَا قبلتهُ

(١) لا تيمموا: لا تقصدوا خبيث المال ورديئه لتنفقوا منه فى سبيل الله. (القاموس القويم ٢/ ٣٧٢).

إلا أنْ تُغمض عينيك ، وتتسامح فى أخْذه ، وكأنك لا تبصر عَيْبه لتأخذه ، فما لم تقبله لنفسك فلا يصح أنْ تقبله لسواك.

ويعطينا الحق سبحانه لقطة أخرى فى أدب الإنفاق ، فيقول تعالى : ﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لا يُتْبِعُونَ مَا أَنفَقُوا مَنًّا وَلا أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (٢٦٢)﴾ [البقرة]

فمن الأدب الإيمانى فى الإنسان أن ينسى أنه أهدى ، وينسى أنه أنفق ، ولا يُطلع أحداً من ذويه على إحسانه على الفقير : أو تصدّقه عليه ، وخاصة الصِّغار الذين لا يفهمون حكمة الله فى الأشياء.

فعندما يعرف ابنى أننى أعطى لجارى كذا ، ربما دَلَّ ابنى ومَنَّ على ابن جارى ، ربما أخذه غروره فعيَّره هو .

فإياك أنْ تُتبع النفقة مَنّاً أو أذىً ؛ لأنك إن أتبعتها بالمنِّ ، فسيكرهها المعْطَى الذى تصدقتَ بها عليه ويتولد عنده حقْد وبُغْض؛ ولذلك حينما قالوا «اتقِّ شَرَّ مَنْ أحسنتَ إليه» شرحوا ذلك بأن اتقاءَ شَرِّ ذلك الإنسان بألاَّ تُذكِّره بالإحسان ، لأن ذلك يُولِّد عنده حِقْداً.

والحق سبحانه سيأتى بنتيجة النفقة بدون مَنٍّ أو أذى بما يفرح له قلب المؤمن ، إما بالبركة فى الرزق ، وإما بسَلْب المصارف عنه ، فهم تصدَّقوا. وسيأتيهم الحق سبحانه بما يُفرحهم ويشرح صدورهم ويبهج قلوبهم ، إما بسرعة الخُلْف عليهم ، أو برضى النفس ، أو برزق السَّلْب .

فآفة الناس أنهم ينظرون إلى رزق الإيجاب دائماً أى : أن يقيس البشرُ الرزقَ بما يدخل لهم من مال ، ولا يقيسون الأمر برزق السلب ، ورزق السلب هو محطُّ البركة.

هَبْ أن إنساناً راتبه خمسون جنيهاً ، وبعد ذلك يسلب الله منه

مصارف تطلب منه مائة جنيه ، كأنْ يدخل فيجد ولده متعباً وحرارته مرتفعة ، فيرزق الله قلب الرجل الاطمئنان ، ويطلب من الأم أنْ تُعدّ كوباً من الشاى للابن ، ويعطيه قُرْصاً من الأسبرين ، وتذهب الوعكة وتنتهى المسألة.

ورجل آخر يجد ولده مُتْعباً وحرارته مرتفعة ، وتستمر الحرارة لأكثر من يوم ، فيقذف الله فى قلبه الرُّعْب ، وتأتى الخيالات والأوهام عن المرض فى ذِهْن الرجل ، فيذهب بابنه إلى الطبيب فينفق خمسين أو مائة من الجنيهات.

الرجل الأول أبرأ الله ابنه بقرش ، والثانى أبرأ الله ابنه بجنيهات كثيرة ، إن رزق الرجل الأول هو رِزْق السَّلْب ، فكما يرزق الله بالإيجاب فالله يرزق بالسلب . أى : يسلب المصرف ، ويدفع البلاء.

والله فَضْله واسع ، وعطاؤه لا حدودَ له ، ولذلك يقول رب العزة سبحانه : ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٢٦١)﴾ {البقرة}

فالإنفاق فى سبيل الله يردُّه الله مضاعفاً ، وما دام الله يضاعفه فهو يزيد ، لذلك لا تحزن ولا تخَفْ على مالك ؛ لأنك أعطيتَهُ لمقتدر قادر واسع عليم.

إنه الحق الذى يقدر على إعطاء كل واحد حَسْب ما يريد هو سبحانه ، إنه يعطى على قَدْر نية العبد وقَدْر إنفاقه.

وهذه الآية تعالج قضية الشُّح فى النفس الإنسانية ، فقد يكون عند الإنسان شىء زائد ، وتشحُّ به نفسه ويبخل ، فيخاف أنْ ينفق منه فينقص هذا الشىء.

وهنا تقول لك قضية الإيمان: أنفق ، لأنه سبحانه سيزيدك ، والحق

سيعطيك مثلما يعطيك من الأرض التي تزرعها ، أنت تضع الحبة الواحدة ، فهل تعطيك حبة واحدة ؟ لا ، إن حبة القمح تعطي كمية من العيدان ، وكل عود فيه سنبلة ، وهي مشتملة على حبوب كثيرة ، فإذا كانت الأرض وهي مخلوقة لله تضاعف لك ما تعطيه ، أفَلا يضاعف العطاء لك الذى خلقها ؟

وإذا كان بعض من خَلْق الله يضاعف لك ، فما بالك بالله جَلَّ وعلا؟

إن الأرض الصَّماء بعناصرها تعطيك ، أئذا ما أخذتَ كيلة القمح من مخزنك لتبذرها في الأرض أُيُقال : إنك أنقصتَ مخزنك بمقدار كيلة القمح ؟ لا ؛ لأنك ستزرع بها ، وأنت تنتظر كم ستأتى من حبوب ، وهذه أرض صَمَّاء مخلوقة لله ، فإذا كان المخلوق لله قد استطاع أنْ يعطيك بالحبة سبعمائة ، ألاَ يعطيك الذي خلق هذه الأرض أضعافَ ذلك ؟

إنه كثير العطاء ، وعطاؤه سبحانه غير مقطوع ولا ممنوع ، فالمنفقون أجرهم عند الله أضعاف مضاعفة ، وهو أجر ليس بقدرات البشر ، ولكنه بقدرة الله سبحانه .

يقول الحق سبحانه :

﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾﴾ [المائدة]

فالحق سبحانه عنده من السَّعَة ما يعطى الكل ، وسبحانه واسع عليم، والحديث القدسى يقول : يا عبادى ، لو أنَّ أولكم وآخركم ، وإنسكم وجنكم ، قاموا في صعيد واحد ، فسألونى ، فأعطيت كل إنسان مسألته ، ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المخيط إذا أُدْخِل البحر. يا عبادى ، إنما هى أعمالكم أحصيها لكم ، ثم أُوفيكم إياها ، فمن وجد خيراً فليحمد الله ، ومن

وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه [1] .

إذن : فخزائن الله مَلأى ، لا تنفد ، وسعة الحق مطلقة ، وهو سبحانه يرزق بغير حساب ؛ لأنه لا توجد سلطة أعلى منه تقول له : لماذا أعطيتَ فلاناً أكثر مما يستحق ؟

يرزق بغير حساب ؛ لأنه لا يحكمه قانون ، وإنما يعطى بطلاقة القدرة ، فخزائنه لا تنفد .

إن قدرته ـ جل وعلا ـ تتسع لعطائنا جميعاً دون أن ينقص شيء من عنده ، فهو عطاء مَنْ لا ينفد ما عنده ، فهو يعطيك ويعطى الآخرين ، ولا ينقص مما عنده شيء.

والمؤمن يعلم أن عطاء الله لواحد لا يمنع أنْ يعطى الآخر ، ولو أعطى سبحانه كل واحد مسألته ما نقص ذلك مما عنده إلا كما ينقص المخيط إذا غُمِس في البحر .

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٥/ ٧٧ ، ١٥٤) ، والترمذي في سننه (٢٤٩٥) ، وابن ماجه في سننه (٤٢٥٧) من حديث أبي ذر رضي الله عنه .